

تفسير ابن كثير

وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّريبٍ

وقوله : (وحيل بينهم وبين ما يشتهون) : قال الحسن البصري ، والضحاك ، وغيرهما :

يعني : الإيمان . وقال السدي : (وحيل بينهم وبين ما يشتهون) وهي : التوبة . وهذا اختيار

ابن جرير ، رحمه الله . وقال مجاهد : (وحيل بينهم وبين ما يشتهون) من هذه الدنيا ،

من مال وزهرة وأهل . وروي [ذلك] عن ابن عباس وابن عمر والربيع بن أنس . وهو

قول البخاري وجماعة . والصحيح : أنه لا منافاة بين القولين ؛ فإنه قد حيل بينهم وبين

شهواتهم في الدنيا وبين ما طلبوه في الآخرة ، فمنعوا منه . وقد ذكر ابن أبي حاتم هاهنا

أثرا غريبا [عجيبا] جدا ، فلنذكره بطوله فإنه قال : حدثنا محمد بن يحيى ، حدثنا بشر

بن حجر السامي ، حدثنا علي بن منصور الأنباري ، عن الشرقي بن قطامي ، عن سعيد

بن طريف ، عن عكرمة ، عن ابن عباس في قول الله عز وجل : (وحيل بينهم وبين ما

يشتهون) إلى آخر الآية ، قال : كان رجل من بني إسرائيل فاتحا - أي فتح الله له مالا -

فمات فورثه ابن له تافه - أي : فاسد - فكان يعمل في مال الله بمعاصي الله . فلما رأى

ذلك إخوان أبيه أتوا الفتى فعذلوه ولا موه ، فضجر الفتى فباع عقاره بصامت ، ثم رحل
فأتى عينا ثجاجة فسرح فيها ماله ، وابتنى قصرا . فبينما هو ذات يوم جالس إذ شملت
عليه [ريح] بامرأة من أحسن الناس وجهها وأطيبهم أرجا - أي : ريحا - فقالت : من أنت
يا عبد الله ؟ فقال : أنا امرؤ من بني إسرائيل قالت : فلك هذا القصر ، وهذا المال ؟ قال :
نعم . قالت : فهل لك من زوجة ؟ قال : لا . قالت : فكيف يهنيك العيش ولا زوجة لك ؟
قال : قد كان ذلك . فهل لك من بعل ؟ قالت : لا . قال : فهل لك إلى أن أتزوجك ؟
قالت : إني امرأة منك على مسيرة ميل ، فإذا كان غد فتزود زاد يوم وأتني ، وإن رأيت
في طريقك هولا فلا يهولنك . فلما كان من الغد تزود زاد يوم ، وانطلق فانتهى إلى قصر ،
ففرع رتاجه ، فخرج إليه شاب من أحسن الناس وجهها وأطيبهم أرجا - أي : ريحا - فقال
: من أنت يا عبد الله ؟ فقال : أنا الإسرائيلي . قال فما حاجتك ؟ قال : دعني صاحبة
هذا القصر إلى نفسها . قال : صدقت ، قال فهل رأيت في طريقك [هولا ؟] قال : نعم ،
ولولا أنها أخبرتني أن لا بأس علي ، لهالني الذي رأيت؛ أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل ،
إذا أنا بكلبة فاتحة فاهها ، ففرعت ، فوثبت فإذا أنا من ورائها ، وإذا جراؤها ينبحن في

بطنها . فقال له الشاب : لست تدرك هذا ، هذا يكون في آخر الزمان ، يقاعد الغلام

المشيخة في مجلسهم وبيزهم حديثهم . قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل ، إذا أنا

بمائة عنز حفل ، وإذا فيها جدي يمصها ، فإذا أتى عليها وظن أنه لم يترك شيئاً ، فتح فاه

يلتمس الزيادة . فقال : لست تدرك هذا ، هذا يكون في آخر الزمان ، ملك يجمع صامت

الناس كلهم ، حتى إذا ظن أنه لم يترك شيئاً فتح فاه يلتمس الزيادة . قال : ثم أقبلت حتى

إذا انفرج بي السبيل إذا أنا بشجر ، فأعجبني غصن من شجرة منها ناضر ، فأردت قطعه ،

فنادتني شجرة أخرى : " يا عبد الله ، مني فخذ " . حتى ناداني الشجر أجمع : " يا عبد

الله ، منا فخذ " . قال : لست تدرك هذا ، هذا يكون في آخر الزمان ، يقل الرجال

ويكثر النساء ، حتى إن الرجل ليخطب المرأة فتدعوه العشر والعشرون إلى أنفسهن . قال :

ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل إذا أنا برجل قائم على عين ، يغرف لكل إنسان من

الماء ، فإذا تصدعوا عنه صب في جرته فلم تعلق جرته من الماء بشيء . قال : لست تدرك

هذا ، هذا يكون في آخر الزمان ، القاص يعلم الناس العلم ثم يخالفهم إلى معاصي الله

قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل إذا أنا بعنز وإذا بقوم قد أخذوا بقوائمها ، وإذا

رجل قد أخذ بقرنيها ، وإذا رجل قد أخذ بذنبها ، وإذا رجل قد ركبها ، وإذا رجل يحلبها . فقال : أما العنز فهي الدنيا ، والذين أخذوا بقوائمها يتساقطون من عيشها ، وأما الذي قد أخذ بقرنيها فهو يعالج من عيشها ضيقا ، وأما الذي أخذ بذنبها فقد أدبرت عنه ، وأما الذي ركبها فقد تركها . وأما الذي يحلبها فبخ [بخ] ، ذهب ذلك بها . قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل ، وإذا أنا برجل يمتح على قلب ، كلما أخرج دلوه صبه في الحوض ، فانساب الماء راجعا إلى القلب . قال : هذا رجل رد الله [عليه] صالح عمله ، فلم يقبله . قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل ، إذا أنا برجل يبذر بذرا فيستحصد ، فإذا حنطة طيبة . قال : هذا رجل قبل الله صالح عمله ، وأزكاه له . قال : ثم أقبلت حتى إذا انفرج بي السبيل ، إذا أنا برجل مستلق على قفاه ، قال : يا عبد الله ، ادن مني فخذ بيدي وأقعدني ، فوالله ما قعدت منذ خلقتني الله فأخذت بيده ، فقام يسعى حتى ما أراه . فقال له الفتى : هذا عمر الأبعد نفد ، أنا ملك الموت وأنا المرأة التي أتتك . .. أمرني الله بقبض روح الأبعد في هذا المكان ، ثم أصيره إلى نار جهنم قال : ففيه نزلت هذه : (وحيل بينهم وبين ما يشتهون) الآية . هذا أثر غريب ، وفي صحته نظر ، وتنزيل [

هذه [الآية عليه وفي حقه بمعنى أن الكفار كلهم يتوفون وأرواحهم متعلقة بالحياة الدنيا ، كما جرى لهذا المغرور المفتون ، ذهب يطلب مراده فجاءه الموت فجأة بغتة ، وحيل بينه وبين ما يشتهي . وقوله : (كما فعل بأشياعهم من قبل) أي : كما جرى للأمم الماضية المكذبة للرسول ، لما جاءهم بأس الله تمنوا أن لو آمنوا فلم يقبل منهم ، (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون) [غافر : 84 ، 85] . وقوله : (إنهم كانوا في شك مريب) أي : كانوا في الدنيا في شك وريبة ، فلهذا لم يتقبل منهم الإيمان عند معاينة العذاب . قال قتادة : إياكم والشك والريبة . فإن من مات على شك بعث عليه ، ومن مات على يقين بعث عليه . آخر تفسير سورة " سبأ " والله الحمد والمنة .